

وظيفة الصحافة في المجتمع الحديث للأستاذ سيد قطب

الصحافة ظاهرة اجتماعية ، رافقت المجتمع البشرى في تطوره كضرورة أولية من ضرورات الاجتماع . وليس في هذا القول غرابة ، فلقد وجدت الصحافة قبل أن يوجد الورق بأجيال ، بل قبل أن توجد الكتابة ! وكانت "الصحف" في ذلك الزمان هي تلك "الألسنة" التي تنقل الخبر من جهة إلى جهة ، قريبة كانت أو بعيدة ، ثم ترتقى من نقله مجردا إلى تنظيمه وتعميقه ، ثم ترتقى من هذا إلى التعليق عليه ، وقرنه إلى أشباهه ونظائره ... ذلك أن المجتمع لا يستغنى عن هذه الوظيفة في كل أدوار حياته . ومتى وجدت الوظيفة وجد العضو الذي يؤديها . وكل ما يتم بعد ذلك إنما هو التطور في هذا العضو ليحسن أداء الوظيفة .

الصحافة إذن ظاهرة من ظواهر المجتمع... ولكنها بدورها تؤثر في المجتمع . فيقع بينهما ذلك التفاعل الخالد بين الظواهر الاجتماعية والمجتمعات المتطورة : يرتقى المجتمع فيطلب صحافة راقية ، وترقى الصحافة فتأخذ بيد المجتمع .

ويقع في بعض الأحيان - وذلك غالباً في فترات الانتقال - أن يفتل بناء المجتمع وينقصه التماسق والانسجام وليس هذا شراً دائماً ، بل كثيراً ما يكون خيراً . ذلك أن الانسجام في المجتمع لا يتم إلا في حالتين : حالة الرقي التام وحالة الانحطاط التام ، ففي الحالتين تكون طبقات المجتمع متقاربة في الأحاسيس والمطامح والآمال ، وتكون الأفكار السائدة متقاربة أو متناصفة . أما في فترات النهوض - وخاصة في أوطاننا - فالمجتمع يصاب برجة أو رجأت تخلخل انسجامه ، وتفقد أطمئنانه . ويختلف مجال الرجأت الاجتماعية ، باختلافه في الرجأت الطبيعية فتكون قوية في مركزها ثم يقل التأثير بها كلما اتسع المحيط ، حتى ليتلانى أثرها في الأطراف البعيدة . وهذا مجرد تمثيل بطبيعة الحال .

أما تطبيق هذا المثل على المجتمع فيكون بالنظر إلى الفئات والأوساط المتحمسة للنهضة بجانب أولئك الفارقين في سبات الماضي ، أو المدافعين عما ألفوه من النظم والأفكار السائدة - أولئك الذين نسميهم الرجعيين أو المحافظين .

في مثل هذه الحال يعد هذا التخلخل خيراً في مجموعه . فلا بد أن يشتط المتحمسون في طموحهم ويحللوا من الماضي جمعة ، حتى ليؤدي هذا في بعض الحالات إلى الترخيص والاستثمار . ولا بد أن يتشبث المحافظون بالأفكار السائدة ليحفظوا التوازن . أما الجامدون فطبقة غير طبقة المحافظين لا يحسب لها حساب ، لأن مصيرها المحتوم هو الغناء .

في فترات التحلل هذه لا تكون الصحافة ظاهرة اجتماعية سليمة ، إنما تكون مؤثرا اجتماعيا إيجابيا ، أو يجب أن تكون كذلك على أقل تقدير ! .

فالمفروض أن الصحافة تمثل أرقى عناصر المجتمع ، وتعبّر عن أوسع آماله ، وتهدف إلى أقصى مطامحه . وعليها أن تتولى زمام القيادة في فترة الانتقال . وألا تقف عند حدود تمثيل المجتمع القائم ، بل تتخطاه إلى تمثيل المجتمع المكون في ضمير الغيب .
وذلك هو الواجب المفروض على الصحافة العربية في هذا الزمان .

وأحب أن أؤكد هذا المعنى وأبرزه مرة ومرة ، ذلك أن كثيرا من الصحف لا تنظن إلى هذه الحقيقة ، فتنهمم بأنها مطالبة بأن تكون صخرة للجمع الحاضر فحسب ، وتكون هذه حجتها كلها عيب عليها والخروج والتحلل .

واتد يكون الريح والرواح هما اللذان يعرفان بعض الصحف بتلبية الغرائز المأبظة في نفوس الجماعات ، ويعرفان بعضها كذلك بتلبية الأحاسيس الشعبية العابرة في الفن وغير الفن ولكن ينبغي ألا يكون الرواح المادى المؤقت هو كل ما يرسم برامج الصحافة وخطتها . وإلا خرجت من الدائرة الفكرية إلى محيط التجارة .

على أننا نعلم الجماهير في أية فترة من فترات التاريخ حين نقول : إن تلبية الغرائز والانفعالات العامة هو كل ما يجذبها في هذه الحياة . ففى الجماهير عنصر خير في جميع الأزمان وهناك خيطان في كل نفس إنسانية . خيط الميوط وخيط الصعود ، وهى تستجيب لمن يستطيع أن يجذبها بمهارة بأحد الخيطين إلى هنا أو هناك . وقد يكون اجتذابها بخيط الصعود أصعب ، ولكن هذه هى مهنة الصحافة ولا سيما في فترات الانتقال .

ويفهم بعض الدعاة الاجتماعيين اليوم أن الصحافة لا تستخدم المجتمع إلا حين تتحدث عن المسائل الاجتماعية وعن صراع الطبقات . وفي هذا غلو ظاهر . فالصحافة تستخدم المجتمع كلما عملت على ارتفاع عقليته ، وتوسيع مدى اهتمامه ، ونقله من الدائرة الشخصية الضيقة أو الدائرة المحلية المحدودة ، إلى آفاق أهد ، ومحيط أرحب . وكلما أثارته في نفسه الاهتمام الإنسانية العالية ، وغرست فيه حب الاستطلاع والاطلاع .

فالأداب والفنون ، والعلم والتاريخ ، وسائر المعارف البشرية ليست ببعيدة عن الخدمة الاجتماعية المباشرة . ومحال أن تفتقر في المجتمع ملكاته الطيبة ، ولا أن تحمزه لتغيير وضع من أوضاعه إذا أنت لم ترفعه إلى مستوى فكري ووجداني خاص . وكل المعارف الإنسانية تشترك بنصيب متقارب في هذا الربع الذى لا يتم بين يوم وليلة ، ولا بد فيه من الجهد والمثابرة واستخدام جميع الطرق والأدوات .

يجب إذن أن توسع نظرتنا إلى الخدمة الاجتماعية . فلا تختصرها في المسائل الاجتماعية المباشرة ولا في تصورات صراع الطبقات .. هذا جزء لا بد منه من برنامج الصحافة ، ولكنه ليس البرنامج كله في حال من الأحوال .

ولكن هذا لا يسوقنا إلى استباحة وقت القارئ ، وإضاعته في قراءة مالا يجدى . فالأخبار النافذة ، والحوادث الشخصية ، ومثيرات الفرائز ، ومواد التسلية الجوفاء ... كلها استغلال ردي للطاقة المذخورة في النفس الإنسانية وللوقت المحدود في حياة الإنسان . ذلك أن لكل فرد طاقة ووقت يقضيها في القراءة ، وهما يستندان في قراءة الرخيص من القول بما يستندان في قراءة المفيد . فمن العيب إذن أن نستفدهما في صف رخيص من المقروء والمكتوب !

على أنني أؤكد أصف هذا النوع من الاستغلال بالجريمة ، فهي جريمة نفسية واجتماعية أن ننفق طاقة الأمة في هذا المذر ، مثيرين فيها حاسة الفضول ، وغريزة الجنس ، وانفعالات الحيوان . فهذه الطاقة هي الرصيد المذخور للبناء والتطور والنهوض . ونحن في مستهل عالم جديد يتطلب من المجتمع استحضار كل رصيده من الطاقة ، ليقفز الى ركب العالم الجديد .

لئد كان واجب الصحافة للمجتمع واجباً صحافياً تاريخ حياتها كله . وهو اليوم أضخم منه في أي وقت مضى ، لأننا في قمة تحول . ولأن بناء المجتمع الحالي متداخل كحال في فترات الانتقال ، وعلى الصحافة أن تمدك دعول الهدم بيد ، وباليد الأخرى أحجار البناء .

ولكي تستطيع أنت . تنهض بالواجبين معا ، ينبغي لنا أن تكف عن استغلال الغرائز الهابطة ، والانفعالات العامة ، وأن تجذب خيط العمود في النفس الإنسانية لرفعها إلى أفق الهدم والبناء معا .

سيد قطاب